

الفصل السادس

الخاتمة

(الآن قد بلغت ختام مهمتي . وأن الوقت
لأجمع في خلاصة رتيبة نتائج بحثي عن الخير
الذي أضفته المسيحية على الاخلاق . ومن
العبث ان أحاول ، في كتاب من هذا الحجم ،
الا وضع خلاصة موجزة للبحث . ولذلك
سأجمل في هذا الفصل رموس الموضوعات
الرئيسية التي عالجتها ، ثم أشير الى بعض
الموضوعات التي كان ينبغي التبسط فيها في
كتاب مسهب غير هذا ، ولكنني ساكتفي
بمجرد الاشارة اليها

لا يمكن القول ان الدين والآداب شيء واحد ، ومع ذلك
فان التلاحم بينهما وتداخل الواحد في الآخر مدى عصور
التاريخ ، كان مستمراً لم ينقطع ، ولم تتوثق العلاقة بينهما في أي
موضع آخر قدر توثقها في المسيحية . ومما قلت يتبين ان المسيحية
قد اضفت خيراً على الاخلاق من الوجوه الآتية :

١ - في الوصيتين العظيمتين ، محبة الله ومحبة القريب ،
اللتين أجمل فيهما يسوع ناموس الله ، وهما بما تضمنتاه من قواعد
الآداب لم تشرعا نواهي تحكيمية وأوامر تحريم فاصلة ، بل قامتا
في أساسهما على مبدأ يشبع عقل الانسان وضميره

٢ - في الشعور بالخطية وحاجة الانسان الى الغفران مما
يجعل وجهة نظر المسيحي الى الحياة عميقة ذات معنى خارق

٣ - في خلق موقف جديد حيال الله ، هو ثقة البنين ،
تمتزع فيه المودة باتضاع النفس ، مما يأتلف مع بنوة الله بالتبني في
الاتحاد بيسوع المسيح ، وهذا احساس يشعر به المسيحي ويستمتع
٤ - في التشديد على أهمية الخدمة الاجتماعية القائمة على
الفكرة المسيحية عن الطبيعة الالهية كما أعلنت في يسوع المسيح ،
والتي هي مظهر للقوة الروحية التي تربط أعضاء الجماعة المسيحية
بالمسيح وبعضهم ببعض .

و بعد احصاء هذه الجهود يبقى الكثير ناقصاً . وانه بحث
شيق أن تفكر في الأثر الذي طبعته على المسيحية أمزجة الشعوب
التي دانت بها ، وتاريخها السابق وتقاليدها وعاداتها . على ان
المجال لا يسمح لي الا أن أشير فقط الى ان هذا الأثر لا بد
ينتج نماذج مختلفة من الاختبارات الدينية المسيحية وما يلابسها

من نتائج اخلاقية . وقد أتيح لي في هذا البحث أن أسهب في الكلام عن العلاقات بين المثل الاخلاقية في المسيحية والمثل الاخلاقية بين اليهود الذين نشأت المسيحية في أحضانهم ، وكذلك بينها وبين المثل الاخلاقية عند اليونان والرومان وهم الذين سادوا العالم ، اليونان فكراً والرومان سياسياً ، في الزمن الذي خرجت فيه المسيحية من حدود فلسطين لتكون ديناً عالمياً . ولكنني لم أتبسط على هذا النحو في الكلام عن المؤثرات التي انطبعت على الاخلاق المسيحية بين الاجناس والشعوب التي دانت بالمسيحية في عصور متأخرة

أثر الادب على التاريخ المسيحي الكبير

ثم ان بحثاً وافياً عن فضل المسيحية على الاخلاق ، لا بد ان يشمل ليكون كاملاً ، بعض الموازنة والمقارنة بين أثر المسيحية في النظريات والتصرفات الادبية وأثر الاديان التاريخية الكبرى التي دان بها البشر . فضلاً عن ان هذه الاديان قد أثرت في المسيحية وتأثرت بها ، تارة عن طريق التأثير المباشر ، واخرى عن طريق الصدء والنفور ورد الفعل . ولا بد من التسليم ، كما أسلفت القول غير مرة ، ان دين اسرائيل يعتبر بمثابة « فرش

الصورة « للتعالم المسيحية ، وهو دين مؤسس المسيحية ودعاتها
الاولين ودين الاسفار المقدسة التي أدمجت في الكتاب المقدس
المسيحي . وعن طريق دين اسرائيل الذي نبتت فيه تأثرت
المسيحية بالاديان القديمة الاخرى ، ربما المصرية ، وبلا شك
البابلية ، ولا ننسى دين زرادشت الفارسي وهو من الاديان
الحية حتى اليوم تحت اسم « البارسية » في بلاد ايران

ثم ان اليهودية ذاتها قد تأثرت فيما بعد من ناحيتين :
فهي من الناحية الواحدة قد تطورت بمقتضى اضطرارها لتحديد
موقفها حيال اختها المسيحية ، ومن الناحية الاخرى بحكم
اضطرارها الى اقتباس بعض العادات والمشاعر المسيحية حينما
وجدت في البلدان التي دانت اكريتها بالمسيحية . ثم ان الاديان
اليونانية الرومانية التي استوطنت بينها الكنيسة المسيحية بعد اذ
تركت مهدها اليهودي ، قد أثرت في المسيحية في بادىء الامر عن
طريق الصدّ والنفور . ذلك لان المسيحيين قد مالوا الى الاخذ
بطرائق الحياة التي ورثوها عن دين اسرائيل القديم معارضين
في هذا الموقف ، الحياة المألوفة بين الامم التي بنّت فيها دعايتها .
ومع ذلك فانه بعد تكرار عدد المتصرين من « الامم » جاء
هؤلاء الى الكنيسة المسيحية بالعادات والمشاعر التي تأصلت

فيهم وهم بعد في أديانهم القديمة . ومن ثم أثرت هذه الأديان
تأثيراً كبيراً في تطور المسيحية التاريخي لا سيما في أوضاع العبادة
وهي ميدان من ميادين السلوك

ولا شك أن أديان شعوب شمال أوربا وشرقها — وهم
أقل حضارة — وهي الشعوب التي ترغلت فيها المسيحية — قد
أثرت أيضاً في تطور الاخلاق المسيحية في تلك الرقاع من
الكرة الارضية . وقد كان تأثيرها في أول الامر سلبياً ، فان
بعض قواعد السلوك الشائعة فيهم حُظرت على المتصرين المسيحيين ،
وقد اخذوا على أنفسهم تكاليف جديدة ووضعوا أمامهم مثلاً
للاخلاق جديدة . وظهر بعدئذ في الآراء الاخلاقية لتلك الشعوب
التي اعتنقت المسيحية ، الآثار الوراثية التي نقلوها عن أسلافهم .
وطبيعي ان ينتج عن تطبيق المبادئ المسيحية على حياة أمة
جماعة جديدة ، تطورات لتلك المبادئ ، ما كانت لتحدث في
وسطها الاصل الذي ترعرت فيه

أثر الاسلام :

وفي صدد التحدث عن تاريخ فضل المسيحية على الاخلاق ،
لا يفوتنا ان نلمح الى الاثر الذي انطبع على وجهة نظر ومسلك

الامم والشعوب التي دانت بالمسيحية من جراء احتكاكها الطويل ومنازعاتها في القرون الوسطى بدين آخر عظيم ، هو دين الاسلام . وكان تأثير الاسلام على المسيحية ، على الاغلب ، من ناحيتين متعارضتين : الاولى تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية ، التي بعد أن ظلت على خلاف رديحاً طويلاً من الزمن وحدثت جهودها واتحدت كلماتها مئات من السنين بعد اذ أحست انها تواجه قضية مشتركة في الوقوف ضد الاسلام . والثانية عن طريق الاراء والافكار التي اقتبستها مدارس أوروبا المسيحية في القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر من علماء المسلمين ومفكرينهم أمثال ابن سينا والغزالي وابن رشد . ولولا تأثير افكار هؤلاء العلماء ، لاتخذت تطورات الفلسفة واللاهوت في العالم المسيحي طريقاً آخر ، والاخلاق لن تكون بمعزل عن الفلسفة واللاهوت

أما في عصرنا هذا ، فقد أدت سهولة المواصلات الى ازالة الحواجز بين الشعوب والاديان الى حد لم يكن يعرفه العصر القديم ، وتوافرت الفرصة لتبادل الاختبارات الدينية تبادلاً حراً بين أتباع الاديان المختلفة ، مما نأمل ان يكون من ورائه كل الخير . ولا بد ان يكون لهذا أثره في نظريات الاخلاق ومناهج

السلوك من جانب الذين يبدون استعداداً — مهما يكن دينهم —
للاستغناء بكل الاختبارات الدينية والتقاليد التي تجمعت بسبب
هذا التبادل الجديد وصارت ذخراً مشتركاً

أثر مدارس الفكر المختلفة منه فلسفة وعلمية:

ولا يكفي الباحث في فضل المسيحية على الاخلاق ان
يبين أثر الاديان المختلفة، فلا بد له، لايفاء موضوعه، من البحث
في الآثار التي انطبعت على مبادئ المسيحيين الاخلاقية بسبب
اتصال دينهم بالفلسفات ومدارس الفكر المختلفة — الرواقية
والافلاطونية قديماً، والارسطاطالية في القرون الوسطى، والنهضة
الادبية في عهد الاحياء الاوربي — واتصاله بمطارحات وآراء
ديكارت وسبينوزا ولينتز وهيوم وكانت وهيغل وشوبنهاور
وكونت وبرجسون وغيرهم، وكثير ما هم — واتصاله بالعقائد العلمية
التي أثارها غاليليو ونيوتن ودارون، أو التي أثارها في عصرنا
الحاضر اينشتين وفرويد، وأدبيات تولستوي ونيتشة — وغير
هؤلاء ممن لا حصر لهم. وليس من اصالة الرأسية ايضاً أن
تجاهل الكتاب الآخرين الذين لم يكن تأثيرهم مباشراً،
والشعراء ورجال الادب الذين صاغوا الافكار والمشاعر المتفاعلة

في العالم الرّحبي في عصرهم . كذلك لا تتجاهل أثر النهضة
السياسية — الرأسمالية والقومية والاستعمارية والاشتراكية
والشيوعية وغيرها — وهذه كلها قد اختلفت بالمسيحية وتحدتها
لكي تطبق المبادئ العامة التي اذخرتها على المشاكل الكثيرة
التي اثارها هذه النهضة المختلفة — واعني بها مبادئ محبة الله
والناس كما تفهمها — المبادئ التي قوامها الآب البار المحب والابن
المفتقر الى الغفران قبل أن يستمتع بمحبة أبيه

كذلك اعتقد انه لاستكمال البحث في هذا الموضوع ينبغي
الأّ تقتصر على مبادئ المسيحية الاساسية المعترف بها اجماعاً في
وثائق الايمان ، بل نبحث ايضاً الطرق التي عالجتها الكنيسة
المسيحية (وفي العصور المتأخرة افرع الكنيسة المختلفة بعد
فقدان وحدتها الخارجية) تلك المشاكل الكثيرة التي ولدتها
الحضارة الحديثة وتطوراتها المتشابكة ، والتي نشأت عن اتساع
افق المعرفة الجديدة في العلوم المختلفة وفي متجهات العقل
البشري ونواحي نشاطه الكثيرة ، خلال القرون التي
عاشت فيها المسيحية في هذا العالم — هذه كلها لازمة لاستكمال
بحث من هذا النوع ، ولكنه في غير طوقي في هذا المقام أن
استوعب كل هذه الموضوعات

مواجهة العالم للموتخاد الدافلي :

أصبح عالم البشر ، في عصوره المتأخرة ، اشدّ ما يكون امتزاجاً مما لم يألفه من قبل ، وذلك بفضل أوضاع الحياة المادية الحديثة. وأخذت تختفي الظواهر المميزة للبلدان المختلفة ، على الاقل في العواصم والخواضر الكبرى . ففي كل مكان ترى العين قطر السكة الحديد والسيارات والدراجات والانوار الكهربائية ودور الصور المتحركة والمطاعم وحفلات الراديو الخ- كلها على نمط واحد في سائر المدن تكاد لا تميزها عن بعضها . ودوائر الانتاج تفرق العالم بالمواد الضرورية والكمالية ، كلها مصنوعة على طراز واحد. واذا أردنا أن نتعظ بدرس من دروس الماضي ، فلنا ان نستذكر الظواهر المتشابهة- في نطاق أضيق- التي برزت للعيان ابّان عظمة الامبراطورية الرومانية في البحر الابيض المتوسط في بداية العصر المسيحي . فهناك نشهد نظاماً محكماً للعواصلات ، كان له الفضل في ايجاد وحدة ظاهرة من نواح شتى في منطقة معينة رامت الاحتفاظ بوحدة داخلية عن طريق سيادة دين امبراطوري جامع . ولقد حاولت الحكومة الرومانية القيصريّة ان تقيم ديناً جامعاً في عبادة شخص الامبراطور

ولكنها فشلت ، شأن أي حيلة سياسية يلتمسها البشر لاشباع
أشواق الروح ، ولكن هذا المطلب قد سدته المسيحية من حيث
لم تدر تلك الامبراطورية العظيمة

ومما لا شك فيه أن المسيحيين يؤمنون ويرجون أن تسد
المسيحية هذا المطلب في هذا العصر أيضاً وفي نطاق أوسع .
ولكن لا بد ان تكون المسيحية التي تسد هذا المطلب قادرة
على ادماج نفسها في الاختبارات الدينية للشعوب التي بقيت
غريبة عنها حتى الآن ، كما ادجت نفسها من قبل في اختبارات
شعوب اوربا . والمسيحية في هذا العصر ، مع تسلسلها التاريخي
واتصالها بالمسيحية البدائية في العصور الأول ، ومع توافقها معها
توافقاً صادقاً ، تختلف عنها من نواح كثيرة . فاذا رام أتباع
المسيحية تحقيق هذه الآمال وجب أن تختلف المسيحية في
المستقبل عما هي عليه الآن ، مع الاحتفاظ بالتسلسل التاريخي ،
والجوهر الاصيل الذي يميزها وتُدعى به مسيحية . ولا شك
ان في العالم اليوم حاجة -- في نطاق أوسع -- مماثلة لتلك
الحاجة التي اشبعتها المسيحية في عالم البحر الابيض المتوسط
قبل تسعة عشر قرناً . وليس من ينكر هذا الا كل مكابر يزعم
ان الانسانية في غنى عن كل دين

أما يزال العالم مفتقراً للدين ؟

وعندي أن الذين يزعمون أن العالم في غنى عن الدين ليسوا على حق . فإن شعور المرء بوجوده في حضرة «شيء» أو «شخص» تتصل به كل اختباره ، بل نفسه ، اتصالاً مباشراً وثيقاً ، لا اتصالاً متباعدًا سائبًا — أقول ان هذا الشعور يُدخل الى النفس شيئاً من الرهبة والوقار يتفاوت بين خوف الرعدة وبين المحبة «التي تطرح الخوف خارجاً»^(١) . وهذا الشعور ، وان خبا في نفس ساكن المدن التي تعج بالصخب والضجيج ، لن يستأصل من النفس كلية ، ولن يمكن الاستعاضة عنه بأية وظيفة أخرى من وظائف الروح البشرية .

ومما هو جدير بالذكر ان أحد كبار المفكرين في هذا العصر ، كان قد ذهب في كتاباته الاولى الى الزعم ان الدين ليس الا ضرباً من ضروب الفلسفة المختصة بالاطفال ، ولكنه عاد الآن ووجد فيه شيئاً أكثر من هذا — وجد فيه تصريحاً بان حياتنا الحاضرة متصلة بالماضي ومتسلسلة في حلقات متواصلة ، مما يحول بيننا وبين القاء التاريخ وراء ظهورنا والشروع في بداية جديدة .

(١) ١ يوحنا ٤: ١٨

واسـ ... أظن هذا وصفاً ملائماً لطبيعة الدين أو وظيفته ولكنه
على أي حال وصف آخر غير ما ذهب اليه المفكر في بادئ الامر
عند قوله إن الدين هو الفلسفة في مهد الطفولة ، اذ يعزوه له اهمية
مستديمة ويحلّه في أعماق الكيان البشري الذي نحسه

ومع انني اعتقد أن الانسان ، كما هو ، لن يكون غير
«حيوان» ديني . كما قيل عنه ، الا انني موقن اليقين كله ان في
حضارة العالم العصرية المادية شيئاً كثيراً مما يفقر المشاعر الدينية
ويجوّعها ، ويحول بينها وبين تلك الحرية الطليقة التي هي من
مستلزمات رقي الشخصية الانسانية

وهنا اوجه الافكار الى بعض الاعتبارات التي ألفتُ اليها
النظر في الفصل الرابع ، حيث بحثنا منزلة الدين في الاخلاق
المسيحية . واني افكر في الاعتبارات الناشئة عن الوصية الاولى
العظمى وهي محبة الله في المسيحية ، واتصالها اتصالاً لا ينفصل
بافكرة المسيحية عن محبة القريب وخدمة الآخرين التي
تفرضها هذه المحبة ، أو بالحري التي تنطوي عليه هذه المحبة (وقد
رأينا ان هذا ما تمليه علينا المحبة العملية) .

لقد رأينا ان الآداب مستقلة في ذاتها ، فلا حاجة بها الى
مسوغ خارجي في شكل ثواب للطاعة أو عقاب للعصيان مما

يفرضه الشارع في القانون، ومع ذلك فإنه متى انفصلت الآداب عن الدين ، قلَّ شأن سلطانها الذاتي وانخفضت قيمتها الذاتية، ذلك لأن الشعور بالواجب الأخلاقي هو إحدى الحقائق التي ندركها بالفطرة في اختباراتنا البشرية . ولهذه الحقيقة قدرة على إثارة شعور الرهبة الدينية في النفس البشرية . وإخلاقيات « كانت » الفيلسوف ليست عاطلة عن الدين على الرغم من إصراره في القول على أن الآداب مستقلة في كيانها الذاتي ، وذلك لأن الشعور بالواجب الأخلاقي في عرفه ، وفي جلال سلطانه البارز ، إنما هو موضوع الرهبة الدينية وموضوع عبادة لم يَأْبَ هو إداؤها لذلك الواجب

ومن ثمَّ نرى أنه حينما مال البشر إلى إنكار ما للدين من منزلة في الحياة البشرية ، تلك المنزلة التي تخللت كل أطوار تاريخ الجنس البشري كوظيفة ضرورية من وظائف الروح الإنسانية ، فإنهم يخفقون في أنفسهم تلك الغريزة التي تستجيب لنداء الواجب الأخلاقي في ضمائرهم وتثير مشاعر الرهبة والخشوع والعبادة ، وهذا بغض النظر عن تسليمهم بأنهم ملزمون بفعل أشياء معينة والامتناع عن أشياء أخرى . وبعد أن يخفقوا في أنفسهم تلك الغريزة يستسلمون إلى الشك فيتساءلون :

ألا يكون خداعاً و بطلاً ذلك الصوت الذي رفضوا استجابة
نداءه ، أفلا تكون رغبات الفرد في الافصاح عن ذاته ومشاعر
العطف نحو الذين يحبهم هي علة هذه التكاليف والالتزامات
التي يحسُّ بها . ولقد خلصنا من تفكيرنا على هذا النحو الى ان
مضمون الوصية الاولى العظمى التي تفرضها الشريعة المسيحية -
المضمون الذي نستخلص منه ان الآداب قائمة على أساس يسمو
فوق شعور الفرد ومن خصائص المبدأ الروحي ، مبدأ الاتحاد في
كل الحقيقة ، والذي يكشف عن طبيعة المسيحية في اختبار
الحبة المتبادلة - لا يمكن اغفاله (أي المضمون) دون تعريض
الآداب للخطر ، أو بعبارة أخرى لا غنى للآداب عن الدين ،
لا لأنها تقتصر الى مسوغ خارجي ، بل لأنها تبدو بدون تعليلها
الديني حقيقة غير مفهومة لا تتناسق مع الاختبار البشري كله ،
ولذلك يكون من الميسور اتهامها انها مجرد نغمة عنيدة يحاول
الانسان العاقل اغفالها و غرض الطرف عنها

وهذه الاعتبارات مناسبة للمقام الذي نجد أنفسنا فيه في
هذا العصر . فانه مما لا شك فيه أن الدين - بل الأديان كلها -
يتعرض للتهديد من جرّاء المقاومة التي يلقاها من الفكرة العالمية
الحضة التي تستند الى تأويل التاريخ تأويلاً اقتصادياً بحتاً ،

والتي تنكر على الانسانية لذتها في حياة النفس الداخلية ، وذلك
المطلب الذي يسعى اليه الانسان في التماس الحقيقة الخالدة
الروحية التي تقوم عليها المؤسسات الدينية في كل أمة . لان
لكل أمة منشأتها الدينية ، وان تكن في بعض الامم خاصة بها ،
وفي الاخرى من نوع يسمو فوق الحدود الوطنية كما هو الحال
في الاسلام أو المسيحية . وفي كثير من الامم ، ولعلّه في
أغلبها ، مؤسسات دينية في أكثر من نوع واحد وجماعات مختلفة
ترتبط بمؤسسات مختلفة.

والى الازمنة الحديثة ، كان طبعياً أن يسأل المرء : « الى أي
دين تنتمي هذه الامة أو تلك » وكان الجواب في أغلب الاحيان :
« الى أكثر من دين واحد » . ولم نفهم الا مؤخراً ان الحياد
الديني هو الموقف العادي السليم الذي يجب ان تتقنه الحكومة
القومية أو الدولة . ومن دواعي الاسف ان عدم الاكتراث
بالدين يُعتبر ، حتى في نظر الذين يهتمهم أمر الدين ، الموقف السليم
الذي يجب ان تتخذه الدولة أو الامة . بل ان حكومات بعض
الشعوب الكبيرة القوية قد اتخذت موقفاً معادياً لكل نوع
من أنواع الدين .

العطف المتبادل بين زوى العقول المتدبنة :

ويكاد يجيء الخطر الأكبر على الدين من المادية اللادينية التي تغطي الآن على حياة المتحضرين ، والتي تسوقهم الى تجاهل الدين لا الى اضطهاده . وعندنا ان هذا أشد خطراً . وقد يصح أن نسميه «الدين المجاهد في اللادينية» وهو الذي تتصف به شيوعية موسكو . ولما لاقاة هذا الخطر يتحتم على كل من يؤمنون ان الدين عامل ضروري ثابت في الكيان البشري العادي السليم ، أن يبذلوا جهود المستميتين لاهياء خوف الله في قلب الجنس البشري ، وعبادة الله في حياة بني الانسان

وفي كل جنس من أجناس البشر نجد من يهتمون حقاً بمغامرة الروح ، يطلبون الله ويريدونه ، وهذا المطلب هو الالهام الذي تبثه في النفس تلك الاديان التي رفعت البشرية فوق مستوى الرضى بحياة الماديات المحسوسة ، وجعلت همها الاشياء الروحية الخالدة . وامثال هؤلاء في كل جنس من الناس ينظرون الى نظرائهم ممن يفكرون تفكيرهم في الاجناس الاخرى نظرة ملؤها العطف والتعاون .

وليس أقوى على اثارة العطف وتقوية أسباب التعاون من

تبادل الاختبارات الدينية الادبية تبادلاً حراً طليقاً . وهذا التعاون المتبادل يكون على اتمة حينما يخلو من مرارة التعصب لتقاليدنا بحيث لا يتعذر علينا ان نمجوز الى تقاليد الآخرين وتذوقها، وحينما يخلو ايضاً من التخنت الضعيف والتأدب الهزيل في تجاهلنا الفوارق القائمة بين تقاليدنا وتقاليد الغير والاستهانة بها . ويجب ان نمجابه ، في هذا التعاون المتبادل ، الحقائق كما هي ، فلا تخفى الفوارق ولا تطمس أوجه الشبه . وان نقدر ، في غير تردد ، و بروح التفاهم الممزوج بالعطف ، وجهات نظر الآخرين وتعلم منها ، كما ينبغي ان نظهر في غير مواربة ما تعلمناه في اختبارنا الخاص ، كاملاً غير منقوص ، دون أية محاولة لاختفاء شيء منه خشية اثار الغير . أجل ينبغي ان يكون هذا التعاون المتبادل حراً رزيناً وديعاً ودوداً يعمل كل مشترك فيه ، لا لكسب الغلب أو ابتغاء الرضى ، بل لخير الآخرين ، يعمل لا بروح ارضاء الذات ، بل برغبة صادقة كأنه يعامل الآخرين كما يريد ان يعامله الآخرون .

وحسبي ان يكون الغرض من هذا الكتاب خلق هذا النوع من التعاون الحر الطليق بين ذوي العقول المتدينة والافكار الحرة